التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب

في هذا العدد:

ملف الشيخ طاهر الجزائري

النوادر — أ. د. حسين جمعة
وسطية الإسلام في النقد و الجدال — أ. د. بكري شيخ أمين
معايير صيغة الشعر — د. أحمد نتوف
الأنثى و دلالتها الرمزية في شعر المعري — د. فوزية زوباري
مفهوم الشورى في الإسلام — محمد خالد عمر
قراءة في قصيدة من الشعر المغربي القديم — أ. علي بولنوار

العدد ١٠٨ (ذو الحجة) ١٤٢٨ هـ - (كانون الأول) ٢٠٠٧ - السنة السابعة و العشرون

-- المحتوى --

- الافتتاحية - الجوائز الأدبية بين العالمية والإقليمية والمحلية — د. محمود الربداوي — ٧

١

ملف الشيخ طاهر الجزائري

- الشيخ طاهر الجزائري نموذج للمعلم المربي والداعية رائد النهضة في بلاد الشام — بقلم: هاني المبارك — ١٥
- الشيخ طاهر الجزائري في المجتمع — د. نزار أباظة — ٢٣
- طاهر الجزائري وحلقة دمشق الكبرى — رغداء محمد أديب زيدان — ٢٩
- الشيخ طاهر الجزائري ونظرته إلى تدريس العقيدة — د. مرزوق العمري — ٤٥
- تقريب المجاز إلى مسائل المجاز — تحقيق: عدنان عمر الخطيب — ٦٣

٢

- النوادر — أ. د. حسين جمعة — ١٠١
- دور معهد الحياة في ترسيخ الهوية العربية الإسلامية في الجنوب الجزائري — أ. قاسم الشيخ بلحاج — ١٠٩
- اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربي والمنطق الرياضي — أ. د. مها خير بك ناصر — ١١٧
- الرحيل في قصيدة المديح عند الأخطل والفرزدق وجرير — محمد باخوش — ١٣٣
- وسطية الإسلام في النقد والجدال — أ. د. بكري شيخ أمين — ١٦٥
- مفهوم الشورى في الإسلام — محمد خالد عمر — ١٧١
- معايير صنعة الشعر عند الوحيد البغدادي في تعليقاته على كتاب «الفَسْر» لابن جني — د. أحمد نتوف — ١٨١
- خصائص النحو العربي من النظام المغلق إلى النظام المفتوح — أ. الطيب دبّه — ١٩٩
- الأنثى ودلالاتها الرمزية في شعر المعري — د. فوزية زوباري — ٢٢٧
- استدعاء شخصية المعري في الشعر العربي الحديث (بين الواقع والتجريد) — عصام شرتح — ٢٤٣
- قراءة في قصيدة من الشعر المغربي القديم — أ. علي بولنوار — ٢٧٧
- أخبار التراث — التحرير — ٢٩٣

«النوادر»
من التراث اللغوي
إلى الاستعمال الوظيفي

أ. د. حسين جمعة

U——————————————— u

١ ـ كتب التراث اللغوي والاتساع في الاستعمال:

لا تزال اللغة العربية مدار عناية الباحثين والدارسين والمبدعين؛ وكل الغُيُور على صحة مفرداتها ومصطلحاتها، وتراكيبها وأساليبها؛ باعتبارها لسان الفكر والهوية، ووعاء التـراث والثقافة، وصلة لقومها بالآخرين لما تمتلكه من قدرة على النمو والتطور والتفاعل في الحياة والمعرفة والعلم والفن والأدب.

لهذا ألَّفَ الأجداد الكتب العديدة في اللغة والأدب والنقد والفقه والتفسير.. حفاظاً عليها من جهة وتأكيداً لقدرتها على مواكبة الحياة وشمولها على دلائل لا تنتهي مـن جهـة أخـرى، باعتبار ما تملكه من سعة في الأبنية والمادة، ولهذا قيل: إن معجم (لسان العـرب ــ لابـن منظور) حوى /١٢٠/ ألف مادة ولم يستوعب كلام العرب كله وما يعادل /١٦/ ألف جـذر، على حين أن اللغة العبرية لا تزيد على /٢٥٠٠/ جذر، وأحيت هذه الجذور بعد اندثار كثير منها، علماً بأنٍ هناك دولاً أحيت لغتها بعد موت محقق (علمياً ومعرفياً وتقنياً) مثل اليابـان والصين، نظراً لكثرة حروفها، وتعقيد بنيتها ... ممّا يعني أن الأمة القوية في نتاجها المعرفي والعلمي والتقني و... قادرة على تطوير حياتها ولغتها، ولا سيما في إطار توسيع الدلالـة، وتعريب المصطلحات، وفق المعايير المعتمدة لديها. وهذا ما تمتاز به العربية مـن قـدرتها على استيعاب غيرها من اللغات في أحلك الظروف.

وقد أكدت الكتب التي ألّفت في التراث اللغوي حقيقة الاتساع في استعمال العربية؛ ممّـا يعني ثراءها ألفاظاً وتراكيب ومعاني... ومنها كتب في معجمات الألفـاظ مثـل (الصـحاح ولسان العرب، والقاموس المحيط، وتاج العروس، وتهذيب اللغـة؛ ومقـاييس اللغـة، ...)

ومعجمات المعاني مثل (أساس البلاغة للزمخشري) و(المخصص لابن سيده)، و(فقه اللغة العربية للثعالبي/ ت ٤٢٩ هـ)..).

ومنها كتب في معاني الحروف مثل (حروف المعاني للزجاجي/ ت ٣٤٠ هـ) و(الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي/ ت ٧٤٩ هـ) و.... وصنفوا كتباً أخرى عرضت لخصائص اللغة وأسرار العربية مفرداتٍ وأساليب كما هي عليه الحال في (الخصائص، لابن جني/ ت ٣٩٢ هـ)... و(المزهر للسيوطي/ ت ٩١١هـ).

ولم يغفلوا عظمة اللغة العربية في اشتمالها على ظواهر لغوية عدة فَصنعوا لها كتباً خاصة بها مثل (الأضداد، والفروق اللغوية، والتصحيف والتحريف، والغريب والحوشي)[١]؛ وتعرضوا للمعرّب والدخيل كما هو كتاب (المعرّب للجواليقي/ ت ٥٤٠ هـ) و(شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل للخفاجي/ ت ٩٧٧ هـ)...

والتفتوا إلى المصطلحات في جوانب علمية ومعرفية وأدبية وفنية متنوعة فرادوا حقولاً فيها أكدت أسبقيتهم، كما أكدت حيوية العربية وقدرتها على التجدد والتطور في الدلالة بعد أن أثبتت قوتها في احتوائها لكل الألفاظ الدخيلة من اللغات الأخرى، ومن أبرز كتب المصطلحات (التعريفات للجرجاني/ ت ٨١٦ هـ) و(كشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي/ ت في القرن الثاني عشر الهجري).

ولا مراء في أن اللغة العربية قد دخلت ميدان التفسير والفقه؛ وغيرهما مما اتصل بالدراسات القرآنية والحديث الشريف، دون أن ننسى ما يرتبط بقضية الإعجاز القرآني؛ وقيمة اللغة العربية في هذا الصدد[٢].

وقد يقول قائل: يمكن أن نستوعب ما ذكرت من كتب التراث اللغوي وأثرها البيّن في الاتساع الدلالي للغة العربية، فكيف يمكن لهذا الشأن أن يتحقق في كتب (النوادر) التي عنونت البحث بها؟ ومن ثم ماذا نعني بالنوادر؟!!.

٢ ـ (النوادر) من التراث اللغوي إلى الاستعمال الوظيفي:

لا يختلف اثنان في أن لفظ (النوادر) جمع لكلمة (نادرة) والفعل (ندر)[٣] فنقول: ندر الشيء يندر ندوراً سقط، وشَذَّ، أي ما شذَّ وخرج من كلام الجمهور... وقيل: إنما يكون ذلك في النَّدْرة بعد النَّدْرة... ولهذا يقال: ندر الرجل: مات، لأنه يكون في العمر مرة واحدة وعليه قول ساعدة بن جؤيَّة الهذلي:

---

(١) انظر مثلاً كتاب (الأضداد لابن الأنباري/ ت ٣٢٨ هـ) و(الفروق في اللغة) و(التصحيف والتحريف) وكلاهما لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ).

(٢) انظر مثلاً كتاب (دلائل إعجاز القرآن) و(تأويل مشكل القرآن) (مجاز القرآن) و(تفسير غريب القرآن) و(تفسير غريب الحديث) و(النهاية في غريب الحديث) و(تأويل مشكل الحديث).

(٣) انظر لسان العرب (ندر) في كل ما يتعلق بمعنى (ندر).

كلانـــــا، وإن طـــــال أيامـــــه   ســـيندر عـــن شَـــزَنٍ مُـــدْحض

والنَّدْرة: القطعة من الذهب أو الفضة، وكل معدن نادر... وهناك معان أخرى لطيفة فـي دلالة (ندر) كلها تؤكد معنى الاتساع الوظيفي الذي استعمله العرب القـدماء، فجئنـا نحـن فضيقنا على أنفسنا، إذ صار معنى النَّدْرة مختصاً بمعنى الطريف مـن الأمـور والأشـياء، والغريب غير المألوف. ويعد هذا المعنى أكثر شيوعاً في أيامنا من غيره، أما القـدماء فقـد اتجهوا في معنى (النوادر) إلى ((الألفاظ العربية غير المألوفة)) بصورتها الشمولية والمطلقة والتي صنفوها في كتب أطلقوا عليها كتب (النوادر) أو (الشوارد) أو (الشواذ)، ويلحق بهـا كل ما تعلق بكتب اللحن التي تتناول الأغـلاط أو الأخطـاء أو الخلـل أو الاضـطراب أو الترادف أو الاشتراك..... إذ كان القدماء يحرصون على إبراز الفصـيح الأصـيل المقـدَّم عندهم، ويعرضون لأحوال كل لفظ من تلك الجهات، تأكيداً منهم لنفي الشوائب عن لغـتهم، وإثباتاً لسعة الدلالة في العربية[١].

وإذا كان كتاب (النوادر في اللغة) (لأبي زيد الأنصاري الخزرجي/ ت ٢١٥هـ) وكتاب (الشوارد في اللغة للصّغاني/ ت ٦٥٠هـ، ــ وهناك من سماه بالنوادر)[٢] من أشهر الكتـب التي وصلت إلينا (في باب النوادر فإننا لا ننسى كتباً أخرى تناولت هذا الاتجاه كتلك الكتـب التي تحدثت عن الأحاجي والألغاز وصفات الإنسان والخيل والإبـل والوحـوش، والنبـات والسلاح والأشربة... فضلاً عن الكتب التي تناولت الشواذ في اللغة.

وكل ما أثبتنا يُصنَّف في كتب التراث اللغوي التي تعرضت للألفـاظ غيـر المعروفـة، والمجهولة الاستعمال؛ أو البعيدة عن متناول عامّة الناس، وإن عرف شيء قليل منها لـدى الخاصة... ما يعني السعي الجاد والصادق إلى التوسع في استعمالها باعتبارها من الفصـيح المهجور، لنتخلص من القاعدة الشائعة لدينا كما يقال: (خطأ مشـهور خيـر مـن صـحيح مهجور).

ونعتقد بأن استعمال مثل (هذه النوادر؛ غريبة بعيدة كانت أم شاردة وشاذة، ومتعددة الأداء في طريقة النطق، مما اشتبه به اللحن) يمكن أن يقدّم للأمة خدمة جليلة، في إحياء العربيـة واستعمالها واتساع دلالتها مما يؤدي إلى ضبط اللسان والقلم فيبرأ من الخطأ والخلل والزلل والتعثر في أداء اللفظ والجمل وكتابتهما، وهذا يتيح للغة العربيـة القـدرة علـى التجديـد والابتكار، باعتباره واحداً من العناصر الحيوية الكامنة فيها، لمواكبـة الحيـاة المعاصـرة؛

---

(١) انظر مثلاً كتاب (إصلاح المنطق لابن السكيت/ت ٢٤٤هـ) و(تقويم اللسان لابن الجوزي/ ت٥٩٧هـ)، و(تثقيـف اللسـان وتلقيح الجنان لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي/ ت ٥٠١هـ)... وذكر كتاب (مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي) للدكتور أحمد قدور ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ١٩٩٦م) عدداً من الكتب المشار إليها، انظر فيه (ص١٠١ وما بعدها).

(٢) انظر الشوارد في اللغة ص٥٦ و ٨١-٨٢ ــ تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري ــ مطبعة المجمـع العلمـي العراقـي ــ ١٩٨٣م.

والاستعداد للتفاعل مع كل ما يظهر من معارف وعلوم وتقنيات وفضائيات... حاضراً ومستقبلاً، وإلا انقلبت لغتنا إلى لغة متخلفة، جامدة، ما يؤول بها إلى الذوبان في غيرها، ومن ثم الموت.

هكذا يتضح لنا أن أبا زيد الأنصاري وأمثاله كانوا يهدفون إلى تعقب نوادر اللغة الغريبة والمختلفة والبعيدة لشرحها وتوضيحها وذكر مشتقاتها، وكانوا يؤيدون رأيهم ــ أحياناً ــ بعدد من أشعار العرب وحكمها ووصاياها؛ ما يعني أنهم قدَّموا خدمة جليلة في الحفاظ عليها من جهة، وإمدادها بثروة لغوية كانت عوناً للمفسرين والأدباء على تفسير ما لم يقعوا عليه في المعجمات وكتب اللغة الأخرى. وحين كان ذلك كذلك فإننا أردنا لهذه الكتب أن تغدو مادة قوية ودافعة للمعاصرين للاتساع في استعمال ما يحتاجون إليه منها في أساليبهم ومعانيهم... ما يشي بأننا نبتغي تجاوز ما قيل عن مفهوم دراسة التراث اللغوي والحفاظ عليه، أو ما قيل عن دراسة النحو والنحو الوظيفي القادر على إنتاج متلق يضبط الكلمات نطقاً وكتابة ليسلم القلم واللسان من الخلل والانحراف. وهذا ما نستشفه من عرض أبي زيد الأنصاري لفعل (راح) إذ قال: «ويقال: رُحْت بني فلان أروحهم رواحاً، إذ رحت إليهم أو رحت من عندهم. قال أبو حاتم والمازني: أو رحت عندهم»[1]. والرواح لا يكون إلا قبيل المساء[2]، على حين صارت الدلالة لدينا تعني الرواح مطلقاً.

وفي هذا المقام لا يمكن للباحث أن يتجاهل الكتب التي تعلقت باللحن والأغاليط، سواء تخصصت في هذا الأمر أم اشتملت على أبواب شتى بما فيها باب (اللحن) مثل كتاب (الكامل في اللغة والأدب) لمحمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ). ولفظ اللحن يدخل في باب النوادر من المعاني وقيل: لحَّن في قراءته إذا غرَّد وطرب فاللَّحنْ: الغناء والتطريب وترجيع الصوت وعليه قول يزيد بن النعمان في وصف حمامة يتمايل بها غصن رطيب:

يميل بها وتركبه بلحن إذا ما عَنَّ للمحزون أنّا

لحن الرجل يلحن لحناً، تكلم بلغته[3]

وهو ألحن الناس أحسنهم قراءة وفطنة وحجة وبرهاناً، وعليه قول الرسول الكريم « لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» أي أحسن فطنة وحجة.

وقيل: لحن يلحن لحناً؛ إذا قال كلاماً لا يفهمه إلا صاحبه أو القلة؛ لدخوله في باب التورية والإلغاز والنوادر وصرفه عن جهته المقصودة وعليه قول القَتَّال الكلابي:

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ولحنت لحناً ليس بالمرتاب

(١) المصادر الأدبية واللغوية ــ ص٣٢٣ ــ د. عز الدين إسماعيل ــ دار المعارف بالقاهرة ــ ط٢ ــ ١٩٨٠م.

(٢) انظر مثلاً كتاب (ما تلحن به العامة ــ للكسائي/ ت ١٨٩هـ). وراجع (حاشية (١) ــ ص٤.

(٣) انظر في كل ما يأتي عن مادة (لحن) في (لسان العرب).

ويبدو أن ما نستعمله اليوم من معنى اللحن إنما يدخل في الطرب والغناء أو الخطأ والغلط وكل ما هو ضد الإعراب والإبانة والفصاحة، وعليه قول عمر (رضي الله عنه): ((تعلَّموا اللحن (أي الخطأ في الكلام) لتحترزوا منه)). فلحن فلان يلحن وهو لاحن ولحّان ولحَّانة ولُحَنة؛ إذا أخطأ وعدل عن الصواب، وعليه فسر قول مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري في وصف مغنية:

منطق رائع، وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحنا

ومن أشهر الكتب المتخصصة في هذا الاتجاه الكتاب الذي أشرنا إليه بعنوان (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان) لابن مكي الصقلي النحوي اللغوي. وهو يقوم على تصحيح الأغلاط اللغوية الشائعة على ألسنة الناس، ويصوب ما جرى على ألسنة الناس من توهم الغلط في قراءة القرآن الكريم، ــ وعرض له في إطار عرف عند الآخرين بشواذ القراءات ــ فضلاً عما تناوله في باب التصحيف والتحريف ثم يقف عند التداخل الذي وقع في الحديث الشريف وفي الفقه. ولم يزل الغلط شائعاً بين الناس قديماً وحديثاً، وطالما أنكره القدماء ووقفوا ضده؛ على حين ألفنا الخطأ واستمرأناه، وكرهنا الصحيح وهجرناه ما دعا بعض الغُيُور على العربية إلى تأليف معجمات حديثة لتصحيح الخطأ الذي شاع على الألسنة مثل كتاب (معجم الأخطاء الشائعة) لمحمد العدناني.

ولسنا نشك في أن التواطؤ على اللحن/ الخطأ لا يبيح لنا الاستمرار فيه سواء كان في نطق اللفظ وأدائه، أم في تصحيفه وتحريفه، أم في حذف قسم من الحروف أو إبدالها... أم في ما وضع لغيره وليس له أم في التذكير والتأنيث أو...[١]

فمن باب الخطأ في الدخيل والتصحيف ما ورد في أسماء الأعلام مثلاً، كاسم (أزد شير ابن بابك) والصحيح أنه (أرد شير بن بابك)، واسم (زاذان بن فَرُّوخ) والصواب (راذان بن فروخ) وهو أحد رواة الحديث، و(راذان) موضع بالحجاز[٢]

وفي هذا الباب من التصحيف ما وقع في شعر امرئ القيس[٣]:

أحارِ بن عمروٍ كأني خَمِرْ ويعدو على المرء ما يأتمر

إذ أنشده كثير من الرواة (يغدو) وهو تصحيف

وإذا كان التفاوت في استعمال اللغة الفصحى قد وقع قديماً بين القبائل العربية حتى تفرعت عنه دراسات شتى في الترادف والاشتراك؛ ومن ثم بيَّن الدارسون الأصول والفروع فيها، والتفاضل بينها فإن هؤلاء الدارسين قد سايروا النهضة المتجددة في استعمال البنية اللغوية وتراكيبها، وحاولوا تيسيرها كما وقع لأبي حيان في شرح (التسهيل) أو ما وقع

(١) انظر مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ــ ص ٤٣ ــ ٤٧ و ٥١ و ٥٥ و ٥٩ .

(٢) انظر تثقيف اللسان وتلقيح الجنان (ص ٣٨) ومصنفات اللحن ــ ص ١٤٣ ــ ٢٢٨ و ٢٥٨.

(٣) تثقيف اللسان ص ٤٣.

للسيوطي في (المزهر). وإذا كان الاستشهاد بلغات العرب جائزاً وفق مبدأ التوسع في القياس فإنه لا يجوز لنا أن نقع في القياس على الغلط في باب تيسير النحو أو تجديده، محتجين بالعودة إلى بعض ألفاظ لهذه القبيلة أو تلك.

ولعل هذه المسألة التي تدخل في باب التخصص الشديد في صميم دراسة اللغة مثل (مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين)[١] ورأي البغداديين[٢]، تؤكد أن اللغويين القدامى لم يتفقوا على رأي صميم في رد الكلام العربي الفصيح إلى النادر شاذاً كان أو شارداً أو مختلفاً عليه، وأغلبهم ذهب إلى تبني المشهور المعروف المتداول بين القبائل كافة.

وهذا الأمر لا يلغي التجديد والابتكار في اللغة العربية، إذ تطورت وارتقت في الألفاظ والأساليب، ولا سيما أن «لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمه إنسان» كما قال الإمام الشافعي[٣]. فالعربي «إذا قويت فصاحته وسمت لغته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد به، فقد حكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبقا إليها»[٤].

ومهما تكن الأسباب عند القدماء لاستعمال النوادر في اللغة فإن مواكبة التفجر المعرفي والعلمي والتقني... هي التي تدعونا إلى كل ما ينتمي إليها في المكتوب والمسموع من كلام العرب، وفي كل ما يؤيد أنه كان يوماً ما حكاية بعينها عن العرب. ولعل هذا يمنح لغتنا «قوة وسعة وقدرة على مسايرة الحياة المتجددة بمستحدثاتها العلمية والحضارية، وإلا أصيبت بالجمود والركود، والتخلف. وهذا شر ما تصاب به اللغة، وينظمها في عداد اللغة الميتة»[٥].

وعليه فإذا كان تجديد النحو العربي ضرورة ملحة في عصرنا ليصبح نحواً فاعلاً ومرتبطاً بحياة الناس من أجل أن يقوم بوظيفة ثقافية معرفية واجتماعية كبرى، على اعتبار أن النحو يعدُّ مدخل اللغة إلى العلوم العربية والإسلامية جميعها فإن ما نرمي إليه يعد أبعد مما ورد في الكلام على تجديد النحو؛ علماً بأن ما تركه لنا الأجداد من تراث نحوي يحثنا على اتخاذ الخطوات السريعة لإصلاح ما كانوا قد بدؤوا به ليتشكل وفق مقتضيات الحياة المعاصرة دون أن نتنكب جادة الابتعاد عن قواعده وقوانينه المتطورة... فالأجداد إنما وضعوا النحو لحل مشكلات الخطأ لا ليتعبدوا له... واستندوا في استنباط قواعده ونظمه إلى كلام العرب نثراً وشعراً. وحين تعددت آراؤهم النحوية فإنما كانت السبب وراء تيسيره

(١) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي سعيد الأنباري (ت٥٧٧هـ).

(٢) انظر اللغة والنحو بين القديم والحديث ــ عباس حسن ــ دار المعارف بمصر ــ ص ٤٤ ــ ٤٩، ومصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ــ د. أحمد قدور ــ ص ٣٥ و ٣٨ و ٥٥.

(٣) انظر اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ٣٧.

(٤) انظر الخصائص لابن جني ــ ١/ ٤٢٤.

(٥) اللغة والتجديد بين القديم والحديث ــ ص ٥٧.

والجري وراء تلك الآراء، ولعل كتاب (همع الهوامع للسيوطي/ ت ٩١١هـ وكتاب (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ت/ ٩٠٠هـ) من أعظم الكتب التي تناولت هذه المسألة.

ومن ثم فإننا نرى أن ما انتهى إليه النحويون من آراء متعددة لا تقع في باب الاضطراب والاختلاف والتعارض، وإنما تقع في باب التوسع في استعمال كلام العرب، وهو اتساع يفيد اللغة ولا يوقعها في التقوقع والانغلاق والقصور... ومن أمثلة ذلك ما ورد في باب (كان) عند الأشموني إذ قال: ((لا فرق في دخول (الباء) في خبر (ما) بين أن تكون حجازية أو تميمية))[١].

وقد جاء في صيغة (فواعل) أنها شاذة في جمع صيغة (فاعل) التي تعدُّ صفة للعاقل المذكر مثل (فارس ــ فوارس، هالك، هوالك، شاهد ــ شواهد....)

ولما كان أصل الاستعمال مستمداً من مفهوم القياس فإننا نعتمد باب التوسع في هذه الصيغ المستعملة للأنثى (طائفة ــ طوائف...)[٢] ونادرة ــ نوادر، وعارفة ــ عوارف، وطالقة ــ طوالق، ... لتصل إلى غيرها من صيغ الكلمات المفردة المماثلة.

ومما يقوي الاتجاه الذي ذهبنا إليه ما ورد في بيان وجوه شواذ القراءات القرآنية في كتاب (المحتسب) لابن جني، فقد جرد نفسه للدفاع عن الاحتجاج للشاذ فقال: ((غرضنا منه أن نري وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه؛ آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه، لئلا يُرى أن العدول عنه إنما هو غضٌّ منه، أو تهَمة له))[٣].

وكان في ذلك كله يبين فصاحة أي كلمة وطريقة أدائها بردها إلى الفصيح الصحيح ــ وإن اختلفت تلك الطريقة بين العرب[٤] ــ أو يبين طريقة الإبدال في أحد الحروف كما في إبدال (الجيم) (ياء) في (شجرة) فقال ــ بعد أن أنشد قوله رؤبة:

تحسبه بين الإكام شِيَرَة

((وإذا كانت الياء فاشية في هذا الحرف كما ترى فيجب أن تجعل أصلاً يساوق الجيم، ولا تجعل الجيم بدلاً من الياء في قولهم: رجل فقيمج أي فقيمي، وعَرَبانج أي عَرَباني))[٥].

وفي الإلغاز والأحاجي كانت الشوارد والنوادر اللغوية تؤدي وظائف نفعية عدة منها الاستمتاع بطرافتها، وإثارتها للذهن على مسائل نحوية من أجل اتباعها فضلاً عن إثراء اللغة كما ورد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في باب (اللغز في الجواب) ومنه: ((كان الحطيئة يرعى غنماً له، وفي يده عصا، فمرّ به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟

---

(١) اللغة والنحو بين القديم والحديث ــ ص ٧٠.

(٢) انظر مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ٢٥٨.

(٣) انظر المحتسب ــ تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه ــ القاهرة ــ ١٩٩٤م ــ ص ١١ وقد تناول الصَّغَّاني في «الشوارد في اللغة» بحثاً كاملاً عن الشواذ في القراءات القرآنية وأثرها في اللغة ٧٢ وما بعدها و١٣١ وما بعدها.

(٤) انظر المصدر السابق ص ٣٧ ــ وما بعدها.

(٥) المحتسب ٧٤.

قال: عجراء من سَلَم ــ يعني عصاه ــ قال: إني ضيف. فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها))[1].

ولعل هذا اللغز يحدونا إلى ذكر الأحاجي اللغوية التي وردت في الأشعار والتي تعد باباً واسعاً من أبواب التعليم، في الوقت الذي تفيد الاتساع في الاستعمال؛ بمثل ما عُدَّت باباً من أبواب الشواهد النحوية التي يتملّح بها رواتها. ومن ذلك قول العباس بن مرداس السلمي:

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع

فالشاعر يفاخر بقومه الذين يصمدون في السنة العجفاء، وهو يضرب لمن لا نستطيع دفع مفاخرته واعتزازه، على الرغم من أننا نعيش في ذلة وهوان، أما الرجل المنافق المخادع الذي يقول مساءً غير ما قاله صباحاً، ويسير بك في النميمة فإنك تقول له؛ ما قاله المثقب العبدي لابن عمه:

فإما أن تكون أخي بصدق فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فاطرحني واتخذني عدواً أتقيك وتتقيني

وفي ضوء ما تقدم لم يخطر في بالنا ــ لحظة واحدة ــ أن نشجع اللغة الرديئة، لأن من يشجع اللغة الرديئة فإنما تكون نظرته إلى الكون رديئة... ولكننا نقصد إلى إحياء التراث اللغوي في أنماطه المعروفة والبعيدة غير المستعملة لجعله وسيلة للاتساع في الاستعمال محادثة وكتابة. فالعناية بالتراث «ليس عملاً تاريخياً ماضوياً بقدر ما هو عمل حياتي، مستقبلي... والأمر لا يمكن أن يبقى، كما هو الآن، في حدود الوفاء النظري له والإشادة العاطفية به... وإنما هو كذلك أو مثل ذلك في الانتفاع به والوفاء لأنفسنا من خلاله... إنه ليس زينة، ولكنه سلاح ... وليس تباهياً وإدلالاً ولكنه مثل ذلك نوع من الإعداد، ولون من كسب الثقة بالنفس»[2]، كما قال المرحوم الدكتور شكري فيصل. ويظل «التراث هو التراث نفسه، لا يتكرر ولا يتعدد... لكن معرفته هي المتعددة بقدر ما تتعدد البنى الفكرية التي بها يقرأ التراث»[3].

وحين يقدم التراث اللغوي بأنماطه المتنوعة والثرية ذاته بين يدي المعاصرين فإنما يندمج بوظائف شتى للاستجابة لها كي يتحقق النفع المليء بالإمتاع والفائدة. فالرجوع إلى النوادر وتأملها وتدبرها يعني وضع اللفظ في موضعه الأصلي لمعرفته، ثم يضعه الناس حيث يحتاجون إليه. وهذا كله ما يتوافق مع النظرية الألسنية أو السيميائية الحديثة.

ومن ثم تصبح العلاقة بين المعاصرة والأصالة علاقة نامية ومفيدة.

والله من وراء القصد

---

(١) المصادر الأدبية واللغوية ــ ص ١٤٤.

(٢) انظر مجلة العربي ــ عدد ٢٧٠ ــ مايو ١٩٨١م ــ ص ٦٢.

(٣) تراثنا كيف نعرفه ــ ص ٧ ــ حسين مروة ــ مؤسسة الأبحاث العربية ــ ط١ ــ ١٩٨٥م.